

الفصل الثالث

الإصلاح الدينى في أوربا

شهد القرن السادس عشر الميلادى انقساما كبيرا بين رجالات الكنيسة الكاثوليكية في غرب أوربا أدى الى اهتزاز نفوذ الكنيسة الروحية والأخلاقى بين الناس ، وتدهور سمعتها ، ومقدانها لهيبتها الدينية مما نتج عنه ظهور مذاهب جديدة مخالفة للمذهب الكاثوليكي بغرض تقويمه ، وإصلاح المفاصد التى تردت فيها الكنيسة ، وفى محاولة للتحرر من قيودها .

وترجع أسباب هذا الانقسام الى البذخ الذى كان يعيش فيه الباباوات وكبار رجال الدين ، وجمعهم بين الصفة الدينية والصفة الدنيوية ، والزج بأنفسهم فى غمار الحياة السياسية ، ومنافستهم للملوك والأمراء والدوقات فى حياة الترف واللهو وتشديد القصور وجمع المال والسعى وراء المصالح الخاصة .

وقد زاد الطين بلة تجرؤ أحد الباباوات وهو « كلمنت الخامس » بنقل مقر البابوية من مقرها الاصلى فى روما الى « أمينون » بفرنسا حيث ظلت هناك حبيسة تحت السيطرة الفرنسية حوالى اثنين وسبعين عاما . ونظرا لأن البابوية كانت تستمد هيبتها من كرسى القديس بطرس فى روما ، فقد وجد الأوربيون فى انتقالها الى فرنسا لطمة لها خصوصا وان رجالها كانوا محاطين بالنفوذ الفرنسى مما جعل بعض المؤرخين يطلقون على هذه الفترة اسم فترة « الأسر البابوى » .

كل ذلك أدى الى اهتزاز مركز الباباوية وضياع هيبتها وزعامتها للعالم المسيحى ، وزاد الأمر سوءا انقسام كرادلة الكنيسة على انفسهم فى اختيار الباباوات حتى أصبح الذى يدير شئون العالم المسيحى فى أوربا ثلاثة باباوات أحدهما فى أمينون بفرنسا والآخر فى روما بايطاليا ، والثالث فى بيزا بايطاليا أيضا .

وقد أخذ كل بابا من هؤلاء يطعن في زميله ، وفي صلاحيته لتولى الكرسى البابوى ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قام بعض الباباوات بإصدار قرار الحرمان ضد الآخر ، كل ذلك أدى الى جعل سلطة الباباوات موضعا للفتايش والجدال بين الناس ، وانقلب الأمر الى قيام صراع بين مؤيدى بابا أمينون ، ومؤيدى بابا روما وبابا بيزا .

ونظرا لخطورة هذه المشكلة فان هذا الوضع لم يستمر طويلا حيث انتهى الأمر بحسمها ، فصار للباباوية كما كان في أول الأمر بابا واحد هو « مارتن الخامس » ومقر واحد هو مدينة روما مما أعاد الى الباباوية وحدتها .

وعلى كل حال فقد دفعت الأوضاع المتردية في الكنيسة الى قيام بعض الفيورين على كيان الدين المسيحى بالمناداة بإزالة المفسدات التى يقع تحت تأثيرها رجال الدين ، والعكوف على الدراسات الدينية الجادة ، وكان من أبرز هؤلاء « سافونا رولا » الذى أبرز مخازى الباباوية بشكل فاضح وطالب بإصلاح أمورها المتردية . ومارتن لوثر الذى قام بحركته في ألمانيا ، وساعدته على ذلك الظروف المتردية القائمة هناك ، خصوصا وان أهلها ذاقوا الأمرين من تحكم الباباوات ومظالم رجال الدين وأرتكابهم جرائم الرشوة والابتزاز والظلم والإكراه ، ومن أمثلة ذلك أنهم كانوا يجمعون الأموال من الأهالى بحجة انفاقها على الاستعدادات الخاصة بثمن حروب صليبية على المسلمين ، في حين أنهم كانوا ينفقونها على الملاذ الدنيوية من بذخ وترف ومفسد . يضاف الى ذلك ان ابتداء فكرة سكوك الغفران وبيعها لمن يريد التوبة ودخول الجنة من الأهالى بدلا من ذهبه الى روما للحج وتحمل المشاق^(١) ، كل ذلك أثار ثائرة المصلح الدينى مارتن لوثر ، فدعا الى

(١) أصل الفكرة ترجع الى عام ١٥٠٦ عندما كان البابا جول الثانى بحاجة الى الأموال لاتهام بناء كنيسة بطرس في روما ومن هنا فكر في الحصول على الأموال بواسطة سكوك الغفران التى يمنحها للمؤمنين مقابل ما يدفعونه من أموال تصرف على أعمال البناء ثم انجرف الباباوات بهذه الفكرة الى المتاجرة بها بعد انتهاء الغرض الأساسى منها .

اصلاح الكنيسة من مفسدها والرجوع الى تعاليم الانجيل .

ونظرا لدور مارتن لوثر المهم في قلب موازين الامور الدينية في اوربا ،
وتأسيسه للمذهب البروتستانتي فسنعرض له ولدوره .

نشأة مارتن لوثر :

ولد مارتن هانس لوثر باحدى قرى سكسونيا الالمانية في عام
١٤٨٣م من أبوين فقيرين ، ويبدو أن فقر أسرته كان له تأثير كبير على
نشأته حيث انه تربى في طفولته تربية صارمة وشديدة ، وعاش في ظل
حياة قاسية وصعبة انتشرت فيها الخرافات الدينية والمعتقدات الزائفة
التي صورت المسيح في صورة المنتقم الجبار الذى يتوعد الناس بأقصى
أنواع العقوبات ، فتسلط على مارتن لوثر القلق النفسى والخوف من
ارتكاب الآثام ، وخشى أن يخطئه الموت وعليه بعض الذنوب .

وعلى الرغم من فقر والد لوثر ، وثقله أمواله فقد أصرت أسرة مارتن على
تعليمه ، خصوصا وان والده كان يحلم في أن يرى ابنه رجلا من رجال
القانون ونتيجة لذلك اتجه الى دراسة القانون ولكنه لم يستمر فيها طويلا
حيث اتجه الى الدراسات الدينية وانخرط في سلك الرهبنة عسى أن يكون
في ذلك خلاص من ذنوبه ، ودخل في احد اديرة القديس أوغسطين
في عام ١٥٠٥م أملا في تطهير نفسه من الخطايا والذنوب
والوصول الى رحمة الله ، ونظرا لتفوقه في الدراسات الدينية واللاهوتية
حصل على شهادة جامعية تعادل الدكتوراه وكلف بالتدريس في جامعة
مُنبرج وبدأ يتقلد مناصب عديدة .

وفي عام ١٥١٠م أتاحت الفرصة لمارتن بزيارة روما لمدة شهر ،
وهناك رأى بنفسه ما عليه رجال الكنيسة من انحلال وفساد وانهايار للقيم ،
وما يقوم به البابا من جمع الأموال مقابل صكوك الغفران التي يدعى بأنها
تكفر الذنوب كل ذلك دفعه الى الثورة على البابا والهجوم على مفاصل
الكنيسة ، والدعوة الى المذهب البروتستانتي الذى تتلخص فكرته في أن
الايمان المطلق برسالة القديس بولس الى اهل رومية وهى أن « البار
بالايمان يحيا أى « السلام بالايمان وحده لا بالأعمال » وسميت بعقيدة

التبرير بالإيمان ، ثم أخذ في عرض أفكاره حول هذه الرسالة أمام تلاميذه مفندا لها بالحج والبراهن القاطعة ، ومطالباً باقامة كنيسة تعود بالدين الى أصل الكتب المقدسة وتؤسس على مبادئ وتعاليم الانجيل لا على مطالب رجال الدين في روما ومناديا بضرورة فهم العامة لأمر دينهم ، ورفع سيطرة رجال الدين على ضمائرهم وعقولهم ، وداعياً لنشر التعليم المدني الذي يتيح الفرصة للأفراد لنيل قسط من التعليم بعيداً عن تدخل الكنيسة .

وفي عام ١٥١٧م جاء الى سكسونيا الخطيب الموهوب الراهب « حنا تترل » الدومينيكي كمنسوب عن البابا من أجل بيع صكوك الغفران ، مدعياً أنها كافية لتخليص من يشتريها من كل ما ارتكبه من آثام وخطايا وعندئذ وجد لوثر الفرصة المواتية لكشف المهازل التي يرتكبها البابا باسم الكنيسة فاستغل فرصة تجمع الناس عند كنيسة « فيتنبرج » بمناسبة عيد الشهداء ، وأعلن استنكاره لعملية بيع صكوك الغفران موضحاً ان النجاة من النار والثواب والعقاب لا يتم عن طريق شراء صكوك الغفران ، وإنما تأتي عن طريق الايمان بالله وأصر على أن الكتاب المقدس وحده هو دستور المسيحيين .

كما علق لوثر على أبواب هذه الكنيسة القضايا الخمسين والتسعين الشهيرة التي تؤكد فساد انكنيسة ، وطالب بمناقشة مندوب البابا علانية ، كما طالب بالسماح للقساوسة بالزواج وأعلن أن الطلاق أمر شرعي في الكنيسة وأن الغفران رهن برحمة الله ، وأنه ليس للبابا وحده حق تفسير الانجيل ، كما طالب لوثر البابا أن يعترف بحقيقة هذه الأمور ، كما أعلن تأييده للنزعة القومية التي ظهرت في ألمانيا وطالب رجالاتها بإدارة شئون الكنيسة ، وناشد الأمراء الألمان بتزعم حركة الإصلاح الديني ، وقد وافقه العديد من الأمراء على رأيه خصوصاً وانهم كانوا يرون أن سلطات البابا تحد من حريتهم وتصرفاتهم .

ونتيجة لذلك عبأ لوثر الرأي العام الألماني ضد تصرفات الكنيسة وساعده على ذلك اختراع الطباعة في ألمانيا حيث جعل منها لوثر وسيلة لنشر أفكاره خصوصاً وأن المجلات والجرائد لم يكن عرفت بعد مما سهل

توزيع احتجاجه ومجادلته ونقده لتصرفات الكنيسة في طول البلاد الألمانية وعرضها ، ورواج كتبه ومؤلفاته الخاصة بأرائه تجاه الكنيسة . ونتيجة لسخرية كتابات لوثر وطعننها في الكنيسة فقد أصدر البابا ليو العاشر قرار الحرمان ضد لوثر وأعلن طرده من رحمة الكنيسة في ديسمبر ١٥٢٠ الا أن لوثر لم يعبأ بذلك القرار بل قام باحراقه علانية أمام الناس في ساحة فيتنبرج ونشر بعد ذلك رسالته الشهيرة عن الأسر البابوي للكنيسة مبينا ضعفها ومفاسدها ، كما تهجم على رجال الدين مبينا خداعهم للمسيحيين .

ونتيجة لتدهور الموقف واهتزاز سلطة الكنيسة طلب البابا من شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية تنفيذ قرار الحرمان ضد لوثر وقمع حركته باعتباره مارقا وملحدا وخارجا على التعاليم المسيحية .

ونتيجة لذلك دعا الامبراطور مارتن لوثر الى المثول أمام المجلس الامبراطوري لحاكمته والنظر في انكاره ومطالبته بأن يعترف بخطيئته .

وعلى الرغم من خطورة موقف لوثر فقد أصر على آرائه خلال المحاكمة ولم يتراجع عن آرائه أو عن موقفه مما جعل أعوانه وأتباعه يتزايدون ، وجعل هيئة المحكمة تمده خارجا على القانون ، فحكم عليه باهدار دمه باعتباره هرطقيا ، وحرمانه من كافة حقوقه الدينية الا أن الأمير فردريك أمير مقاطعة سكسونيا وضعه تحت حمايته ، كما التف حوله بعض رجال الدين الساخطين على تصرفات كنيسة روما ، وتحكم البابا فيهم مما زاد من شأنه واطعفت القرار البابوي ضده .

وقد وضع أمير سكسونيا مارتن لوثر في مخبأ بعيد عن الأنظار لمدة سنة كاملة ، مما أبعدته عن العقوبة وساعد على ذلك انشغال الامبراطور في أمور مهمة أخرى منها وقف زحف الأتراك العثمانيين على أوروبا .

وخلال هذه الفترة قام لوثر بترجمة الانجيل الى الألمانية عن النص اليوناني ، بأسلوب يتسم بالوضوح وقوة الأسلوب ، مما أوقد الروح الوطنية لدى الشعب الألماني وساعد عامة الناس في الاطلاع على الكتاب المقدس ، وأدى الى اثناء اللغة الألمانية ، وازدهار آدابها .

ونتيجة لذلك استمرت حركة الإصلاح الدينى وبدأت اللوثرية فى اكتساح معظم الطبقات الألمانية وإثارة المعانى الدينية والخلقية القائمة على هدى الكتاب المقدس بين أفرادها . وخلال ذلك رأت بعض الطبقات فى هذه الحركة إصلاحا لأحوالها والحصول على بعض الامتيازات فقامت بالثورات التى كان من أبرزها « ثورة الفرسان » و « حركة الفلاحين » .

وعن ثورة الفرسان فقد وجد الفرسان الذين كانوا قد فقدوا الكثير من امتيازاتهم فى الحركة اللوثرية فرصة لاستعادة نفوذهم فهاجموا الكنائس وحطموا ما فيها من صور وتمائيل واستولوا على ما فيها من نفائس ولكن الأمراء استطاعوا القضاء على ثورتهم وبالنسبة لحركة الفلاحين فنظروا لأن هذه الطبقة كانت تعانى من أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية فقد قامت بثورة انتشرت فى جميع أنحاء ألمانيا بسرعة فائقة ، مطالبة بالتخلص من عبودية الأرض وضرورة تحديد الخدمات الإقطاعية المفروضة عليهم ، وتخفيف ضريبة العشور الكنسية ، والنساء الرقيق والمساواة فى الملكية ، والحق فى اختيار رجل الدين فى كل مجتمع من مجتمعاتهم .

ونتيجة لاستخدام أصحاب هذه الثورات للعنف تحت قناع اللوثرية اضطر مارتن لوثر الى الظهور من مخبئه ليعلم ان حركته بريئة من اتخاذ العنف وسيلة لتحقيق أهدافها .

ونظرا لأن الامبراطور شارل الخامس كان مشغولا خلال هذه الفترة بحروبه ضد فرنسا فى ايطاليا ، وفى وقف زحف العثمانيين على النمسا والمجر ، فانه لم يتخذ أى موقف صريح ضد اللوثرين .

والى جانب ذلك فانه نظرا للخلافات التى كانت قائمة بين البابا والامبراطور فى ذلك الوقت انقلب الوضع لصالح لوثر وانباعه حيث اجتمع المجلس الامبراطورى فى « بافاريا » فى يونيو ١٥٢٦ لبحث القرار الصادر باهدار دم لوثر ومصادرة كتاباته ، وأصدر قرارا فى غير صالح الكنيسة الكاثوليكية وهو ان لكل أمير الحق فى اختيار المذهب الدينى الذى يريده فى امارته ، وبذلك أصبح أتباع لوثر مذهبا شرعيا معترفا به فانتهزوا هذه الفرصة وتطلعوا الى الاستئثار بأموال الكنيسة ، وقاموا بالاستيلاء على أملاكها فى مقاطعاتهم ، ودردوا أتباع البابا من رجال الدين .

ونظرا لتطور الموقف السياسي بين البابا والامبراطور هاجمت قسوات الامبراطور روما وأسرت البابا ونتيجة لانتشار اللوثرية وما تبعه من انقسام خطير هدد الامبراطورية دعا الامبراطور الى عقد المجلس الامبراطورى مرة ثانية ، وفيه تراجع عما أصدره من قرارات فى المجلس الأول ، فأمر بالغاء الحرية التى اعطيت للأمراء لاختيار المذهب الذى يريدونه فى ولاياتهم ، كما أمر بقمع اللوثرية واهدار دم لوثر .

ونتيجة لذلك احتج الأمراء اللوثيريون لأن هذه القرارات ستحرمهم من الثروة التى هبطت عليهم بعداستيلائهم على ممتلكات الكنيسة ، لذلك قرروا عدم الموافقة على تلك القرارات وسموا أنفسهم بالمحتجين Protestant وهو الاسم الذى يحمله أتباع هذا المذهب حتى اليوم ، ونظرا لتدهور الموقف وامكان حدوث حرب دينية بين المسيحيين فى حين كان الاتراك العثمانيون يحاصرون فيينا فى عام ١٥٢٩ فقد حاول الامبراطور أن يحل المشكلة سلميا وبشكل مؤقت فعقد مجلسا فى « أوجزبرج » عام ١٥٣٠ دعا فيه الأمراء البروتستانت للاجتماع مع الأمراء الكاثوليك فى محاولة لفض النزاع بينهما ، وكان الامبراطور فى هذا المجلس مترددا وحائرا حيث تمسك كل فريق برأيه ففى حين كان متأثرا برأى رجال الدين الكاثوليك لم يستطع أن يابى طلبهم بالضرب على أيدي البروتستانت ، ولما حاول التقريب بين الطرفين كان اليون شاسعا ولم تفلح وسائل اللين مع البروتستانت للرجوع عن أنكارهم ومن هنا رأى البابا أتباع الشدة فأصدر قرارا بتحريم اللوثرية ومعاقبة أتباعها اشد العقاب اذا لم يتراجعوا عن أفكارهم .

ولما تبين للبروتستانت مدى الأخطار التى لحقت بهم قرروا الاجتماع فى مدينة شمالكرد عام ١٥٣١ وهناك كونوا حلفا أعلنوا فيه أنهم لن يرضخوا للقوة ، وسوف يدافعون عن مبادئهم ومصالحهم بكل قوة ، وانه اذا تعرض فريق منهم للعدوان هب الجميع لنصرته .

وقد ناشى المجتمعون كيفية الدفاع عن أنفسهم وقرروا تكوين جيش نظامى يجهز بأحدث الأسلحة والجدر بالذكر ان هذا الحلف كان بمثابة

الذوية لندو البروتستانتية وتدعيمها ، نازداد عدد المنضمين لها ، وقوت
ركائز البروتستانتية ، كما اجتمع اللوثريون مرة اخرى في شمالكلد حيث
راوا الاستعانة بملكى فرنسا وانجلترا المناوئين للامبراطور .

ولما رأى الامبراطور عدم جدوى اتخاذ وسائل الشدة مع البروتستانت
لم يضع تعليماته باتخاذ القوة معهم موضع التنفيذ خشية قيام حرب أهلية
لذلك قرر عقد اجتماع لمناقشة الموقف ، وفي أعقابه أصدر قرارات أطلق
عليه سلام نورنبرج دعا فيه الى وقف المشاحنات والحروب الأهلية داخل
الامبراطورية ، وتحقيق السلام وكان ذلك من العوامل الذى زادت من رفع
نجم البروتستانت الذين أعلنوا الوافقة على توحيد الصف أمام عدوهم
المشترك وهم المسلمون .

وبعد أن استقرت الأمور للامبراطور ، وخفت متاعبه الخارجية
وتوقف زحف الأتراك على أوروبا قرر الدعوة الى اجتماع مجلس دينى يجمع
بين الكاثوليك والبروتستانت عام ١٥٤٥ ولكن البروتستانت رفضوا قبول
هذه الدعوة لاعتقادهم أن الامبراطور لا يقصد الا مخادعتهم والقضاء
عليهم ، وهنا قرر الامبراطور استخدام القوة ضدهم .

وفي هذه الأوقات العصيبة توفى مارتن لوثر فخر البروتستانت
تائبهم الروحى ، كما خسروا بعد ذلك المعارك مع القوات الامبراطورية
لأتى استطاعت الدخول الى ألمانيا ، واستخدمت وسائل البطش لعدول
البروتستانت عن مذهبهم ولكن دون جدوى .

وفي محاولة لتوفيق بين المذهبين حاول الامبراطور التوصل الى
طريقة ترضى الطرفين ، فتوصل الى نظام أطلق عليه النظام المؤقت والذى
بمقتضاه يتم التسامح مع البروتستانت ويكفل رضاهم كإباحة زواج
القسس وطقوس العبادة البروتستانتية ومع ذلك لم ينجح الامبراطور في
تطبيق هذا النظام حيث رفضه كل من الطرفين مما نتج عنه احتدام الصراع
بين الكاثوليك والبروتستانت ، وسارت الأمور في غير مصلحة الامبراطور ،
وتزايد حلفاء البروتستانت حتى اضطرت القوات الامبراطورية الى مغادرة
ألمانيا .

وفي فبراير ١٥٥٥ تم دعوة المجلس الإمبراطوري للاجتماع لتقرير الصلح مع البروتستانت ، وفي هذا الاجتماع تقرر اعطاء الحرية لكل أمير أن يختار المذهب الذى يقبله فى امارته ، وعلى الرعايا أن يختاروا أما الموافقة على المذهب الذى يرضاه الأمير أو مغادرة الولاية الى المناطق التى تدين بالمذهب الذى يرغبونه ، كما اتفق على أن تبقى أملاك الكنيسة الكاثوليكية التى أخذها البروتستانت فى أيدي من استولى عليها ، وهكذا كان هذا الصلح انتصارا كبيرا للبروتستانتية واستراحت ألمانيا من الحروب الأهلية .

ولم يقتصر الإصلاح على ألمانيا بل انتقل الى الدنمرك والنرويج والسويد وسويسرا وغيرها .

وهكذا يتضح أن شعوب أوروبا « القرن السادس عشر » كانت تشعر بقلق روحى بعد أن رأت باباوات الكنيسة ينفمسون فى ملاذ الدنيا وبتعدون عن الشئون الدينية مما شجع على ظهور الحركات الدينية الإصلاحية التى اتخذت الطابع الثورى فى كثير من الأحيان والتى نجحت فى إحياء الشعور القومى فى أحيان أخرى .